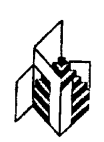
عبق الشوارع

قصص

أحمد محمد حميدة



الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافى
"مطبوعات الكلمة المعاصرة"
[١٨]

الإهداء

إلى الشوارع.. وناسها
الذين أحبهم أكثر مما يتصورون

شعر لأول مرة، عبر تاريخه الممتد بعمر الهيئة، أن تلــك اللافتة الصغيرة المستكينة فوق طرف المكتب، المحفــور بقلبها اسمه الثنائى ولقبه الوظيفى، تشبه لافتة قــبر بــلا شاهد.

زملاء الرواق الفسيح يهرعون.. يقيمون مظاهر الزينـــة ببهو الرواق المغسول الذى يتوسط حجرات المكـــاتب... العمال والموظفون يتبارون بتعليق البالونات.

أوراق الزركشة والابتهاج..

سُحبت المقاعد من المكاتب وتراصت حول الموائد بطــول البهو..

صناديق المثلج فوق مناكب، وأعناق أبدان العرق. تتفــادى رؤوساً تزاحمت بعلب الجاتوه المرفوعة بأذرع ضيــوف جاءوا من فروع الهيئة.. أنيقون.. يقدمون التهانى لزميــل عزيز تنتهى اليوم خدمته..

العمال ينظفون مدخل الهيئة بالمقشات.. يرطبــون الأرض بجرادل الماء.. من هنا سيمر رئيــس القطــاع المبجــل ويودع رجل الرواق النزيه..

لا عمل لأحد اليوم.. اليوم ينتزع من الهيئة رجل عفيف.
أب روحى. رئيساً كان للرواق.. يجوس الان البشر بوجـه مختلج القسمات يضحك مجامل وحـــزن عميــق تغشــاه اللافتة، فيوزع بسمات الزيـــف المقـــهورة.. يصـــافح.. محاولاً إبعاد شكل اللافتة عن رأســـه.. عينــاه تـــهربان وتخدعانه وتتوسدها..
يزيف الخيلاء ببدلته الأنيقة ورباط عنقه الأنشوطة، تخنــق مجرى البلعوم المنحشر بغصـــة بكــاء تحقــن العينيــن بالحمرة.. يفر.. يجوب الرواق حول موائد الحفل..
يغشى حجرات المكاتب كمن يتفقد سير العمـــل كمـــألوف حاله الســـابق. دواليــب الصــاج والمكــاتب. الشــبابيك والمراوح العتيقة. أجهزة التليفونات ودفـــاتر الســـجلات. ولافتات يخفق لمرآها القلب.. تستوقف الذهن لبرهة..
رجال الرواق، والضيوف المتنـــاثرون بحجــرة مكتبـــه يترقبون وصول رئيس القطاع..
أفنى العمر وراء هذا المكتب. أسفل هذا الشباك المفتـــوح والمطل على الشارع وبيوت الأهالى القصيرة..

هنا انزوت صباحات التألق الوظيفى.. تأنق الشباب..
يتوسده المقعد. خرائط شبكات الكوابـــل. أدوات الكتابـــة، دفاتر أذونات الصرف والتشغيل، وبرواز معلق بـــالجدار المواجه يحدد صورة الرئيس، ينظر إليه بطـــرف عيــن ويبتسم. وسلة مهملات. وسجادة لوثت بأحذية الضيــوف.. والزملاء.. وحركة الســاعى الشــغوف توحـــى بتقـــززه والقلق.. يختلس النظر الشارد لساعة يده المعروقة.. كـــان يقول إنه ساع ممسوس بالهلع. يستفز الأعصاب، ويحفـــز على العمل بالوقت نفسه.. ولافتة..
لافتة صفراء هرمية الشكل صنعت من خشب زان محفور بوسطها اسمه بالخط الكوفى المنمق..
ذلك الأسى المخبوء بالعينين الزاحفتين نحو اللافتة، ولـــم يدركه أحد غير السكرتير المتحرك المحتفى بالضيوف من يقدر الآن على رفع اللافتة التى تجاور الدفاتر والنتيجـــة وأدوات الكتابة والخرائط.. يوقن أن اليوم، أو غداً، ســوف ترفع..
بعد خمسة وثلاثين عاماً. ترفع.؟!

كان ينبغى أن يغامر. يعافر إباء نفسه ويرفعها منذ شهر..
أو أكثر.. لكن عز عليه فعل ذلك بيده..
يد ترتعش مع البدن حين تقترب، فيشفق ويبعد. انتزاعـــها يوقد بالرأس ذكرى سنوات سرسبتها تلاحق الأيام.. رغبة الأسى تتنامى، تحثه، تدفع اليد لرفعها.
أن يتجرأ- تحت أعين الصحاب- ويأخذهـــا قبـل لـــهو الأيدى.. ربما تطوح خلفه بعد ذهابـــه، أو تختفـــى بـــأحد أدراج الإهمال.
يراقب ويجفل. يضغط نمو الرغبة.. ســوف يرونـــه لـــو تحرك نحوها.. تباعده ارتجافة الخجل.. ستكون أثقل مـــن بدنه الذى أحس بثقله المتزايد الآن..
لو أخذها. هل يضعها بغرفة نومه.. فوق طرف الـــدولاب لتتجلى لأعين سجانى البيت المنزعجين دوماً.
الذين منعوه من التدخين، وفرضوا عليه حظـــر التجـــول خارج عتبة الشقة بعد الثالثة عصراً، لمنـــع الســـهر مـــع الأصدقاء بالمقهى..
لتنظرها زوجتك المسترجلة.؟

لتعلن عن وقار، كان، وفقد.؟
باغتت أفكاره يد زميل وضعت فـوق المنكـب فوجـل.. تصافحا، وانساق مع الزميـــل يعــالج لحظــة المباغتــة بالحديث الضاحك عبر أبدان الزحام.. تاركاً خلفه الحجـوة لسكرتيره الأنيق، وضيوف تناسوا دقائق الانتظار الملولــة بالنكات والتدخين لحين وصول رئيس القطاع الذى سيفتتح الحفل..
تاركاً ساعياً شغوفاً يوتر البال. واقفاً كان يـــوارى حنــق التقزز من أتربة الأحذية التى لوثت الســـجادة بــالخروج والعودة، والنظر الملهوف لساعته..
تحرك السكرتير ضمن تحركاته.. ولى للمكتب ظهره.
-مواجها الضيوف- أخفى موضع اللافتة بجسده.
أرسل يده شبه مرتعدة من وراء.. أزاح اللافتـــة قليـــلاً.. غمره هاجس مفاجئ..
بحذر عبثت الأصابع. سحب أحد الخرائط وأخفـــى بـــها اللافتة.. لكن الهاجس مس القلب وثبّت اليد وقشـــع عـــن الوجه ضحكة الترحيب المفتعلة..
ماذا لو لاحظ الضيوف تحرك اللافتة من مكانها.؟

سوف يختلقون الحكايات، والتفاهة.. سكرتيره.؟
بئر أسراره، فرح بخروج رئيسه.! ما كاد الرجل يذهب حتى أزاح اللافتة..!!
لكن اللافتة لن تضيره، لو أزيحت أو تبقت.. الكل يعرف مدى توقيره للمدير. الظل كان والرئيس المباشر لمدة عشرين عاما.. كيف، ويفكرون.؟
يوازن بين ربكة البدن واليد تحاول وضع اللافتة. وانسحب خارجا ليذوب بهاجسه المجهد وسط الصخب المبتهج الذى بدأ يتخافت رويدا. رويدا.
ويتعالى الهرج الحركى..
الرجل وصل.. وصل الرجل..
تصاعدت أنباء وصول رئيس القطاع..
تراصت الأبدان على صفى الرواق.. تلاشى الصخب..
نظر الساعى الشغوف إلى ساعته بضجر..
جاء الرئيس مفسوحا له الطريق بين أكف التصفيق..
تراصوا حول المائدة حين جلس، وإلى جواره المدير، مختلجاً.. كان يختلس النظر من باب غرفته بجفن مرتخ..

الساعى يحجب الرؤية ببدنه المصلوب بحلق الباب ينتظـر أن ينفض هذا الحفل والتأخير..
القيت كلمات الترحيب والوداع..
لاكت الأفواه قطع الجاتوه.. تسابقت الأيـدى فـى رفـع زجاجات المشروب. افرغت فى البطون..
نهض الرئيس بين التصفيق، احتضن المدير وقبله، سـارا معا وسط الصفوف وهى تتجمع بالخلف، نحو باب الرواق الرئيسى..
عندما جاوز المدير باب مكتبه المفتوح نظرت عيناه إلـى الداخل إلا أن الساعى رد إليه البصر - محسورا - بوقوفـه المتحرك على الباب رافعا يده بالتحية وهو يتحين فرصـة انتهاء آخر المارين أمام الباب مدققـا النظـر لسـاعته.. الواحدة والنصف..
كان ينبغى أن يكون جالسا الآن بـأحد كراسـى قطـار الضواحى قبل زحام الثانية الخانق..
انهمك السعاة فى إعادة المقاعد والموائد.
وراح هو بلهوجة المزمجر، يعيد ترتيب الحجرة كالعـادة قبل الذهاب.. رفع الطقطوقة. أفرغ أعقاب سجائرها مـن

النافذة إلى الشارع. وضـــع المقلمـــة والنتيجـــة واللافتـــة وأدوات الكتابة فوق ورق الخرائط ووضعها على أفريـــز الشباك. رفع المقعد فوق المكتب.. تناول المقشـــة. كنـــس المكتب.. رفع بقية الكراسى وكنس السجادة.. سعل لغبـــار تناثر وعبأ جو الحجرة. جمع الأتربة فوق المقشة.

وقذف بها من الشباك..

حين أنزل الكرسى من فوق المكتـــب اصطـــدام بـــورق الخرائط فاهتز..

أعاد المقلمة وأدوات الكتابة. الطقطوقة. النتيجة..

ثم أعاد ورق الخرائط..

ودفع زجاج الشباك، فأزاح الزجاج لافتة انحرفت- قبـــلاً- بفعل إنزال الكرسى جرت على الأفريـــز وتـــهاوت إلـــى الشارع نظر إليها بلا اهتمام..

ركض بجسده نحو الخارج حتى يلحق بالقطار.

مجلة إبداع ١٩٩٩

فى الصباح، صعد شعبان أول درجات برج الاتصـــالات، يحمله شئ من ذعر مراوغ.

(إلى أين صاعد يا شعبان..؟ أصاعد أنــــت لتنتحــر.؟ أم صاعد أنت لرغبتك الشديدة فــى الانتقــام مــن مديــرك المبجل..؟)

يصعد الدرج الحديدى للسلم المستطيل رأسا.

كلا الأمرين ضد رغبتك، ضد نفسك، سوف تموت كافرا، ولن تنال ما تنشد من حقوق، حقك الضائع بيــن مديــرك وفترة استدعائك الأخيرة للعسكرية..

شعبان، أنت خائف، أنت ترتجف، كنت تصعد مرتفعـــات خط بارليف الأسطورى وعلــى كتفــك آر، بــى، جــى، والشدة، بأسرع مما تصعــد الآن وأنــت تحمــل همــوم اضطهادك.. أنت الآن خائف يا شعبان، تصعـــد درجــة وتتوقف درجتين لتنظر تحتك بألم.. لعلك تعد الدرجـــات التى صعدتها، تنظر لترى مدى تقازم الأشـــياء الخــردة المركونة أسفلك.

يوم الحرب، صعدت الجبل الشاهق فى بضـــع دقـــائق..
والآن، ومنذ السادسة، تحاول الصعود على مرتفع متراً أو
أكثر، حتى الثامنة والنصف.. أنت خائف يا شعبان..).
كان شئ بنفسه يصعد، ويبطئ من صعوده، وكان يكتمه.
(مديرك المبجل لن يهتم بأمرك يا شعبان، كما لـــم يكـــن
أمرك يهمه حين عدت من استدعائك فى العام المـــاضى،
وأبعدك عن عملك بالكوابل الذى كنت تجد فيـــه ذاتـــك،
بحجة أن العمل بالكوابل قد توقف على أثر تنفيذ مشـــروع
تجديد الشبكات الأرضية علـــى أيـــدى الأجـــانب، بينمـــا
زملاؤك الآخرون يواصلون عملهم بنفس الكوابل.. أهـــم
فنيون، وأنت. لست فنيا.؟ ألم تقم بـــاصلاح بعـــض ممـــا
أخطأ فيه الأجانب.؟ لا تواصـــل الصعـــود يـــا شـــعبان،
وارضخ لأمرك الواقع، فلن يجديهم موتك كما لـــم تكـــن
حياتك تجديهم..).
كان الدوار ينتاب رأسه بين الحين والآخر، صاعداً ببـــطء
بدنه المرتجف، كانت الأشياء تتضاءل بأسفل منه، عربات
النقل الخردة المركونة، لفات الكوابل الضخمة تبدو أصغر

حجماً.. أبدان العمال الذين توافدوا، تلتف حـــول قـــاعدة البرج، وفوق بنايات المكاتب، يرفعون رؤوس الدهشـــة، والاستغاثة، يصيحون بأن يهبط.

لكن الشئ الصاعد من بطنــه يزيـد مـن دقـات قلبـه وهواجسه.

(أنت الجندى المستبقى القديم الذى صعد فـوق عمـارات بور توفيق العالية، تلك المثقوبة بمدافـع العـدو لـتراقب تحركاته، جنوده الأقـزام، كـانت رغبتـك المحببـة أن تشاهدهم وهم يستحمون فى مياه القنال، رغبتك المفضلـة أن تتأسى على شكل السفن المعطلة بعرض الخليج والتـى تشحنك بالغضب.. أنت الآن مرعوب..).

كان يواصل الصعود، وقد اكتظت الشوارع بالخلق.

(ينظرون اليك، يشاهدون ماذا سيكون بعد الصعود.. بعـد استدعائك، هذا، أمر مديرك المبجل بنقلك غرب البلـدة، أو شرق البلدة، وأنت، سكنك بقلب المدينة بحـى كرمـوز، يزيد من شعورك بالانتماء.. يود خلعك، ارسالك إلى حيث

التعب، فلا تخضع.. نعم.. فى الخضوع جبـــن ومذلـــة.. يريد قتلك بإحساس الضآلة والبطء.
يود ارسالك إلى الهاوية،"مراقيا" غرب الاسكندرية، حيــث يشحنك البذخ السابح فيه المترفون هناك..).
كان البرج يحتويه.. يبدو الآن أكثر ضخامة وعلوا. يحـس بسماكة أسياخه الحديدية التى بدأت تســـخن مـــن وهــج الشمس.. وكان أكثر علوا من خط بارليف.. وكان يـــراه، قبلا، ومن شارع محرم بك وميدان الشهداء، برجا ضئيلا، وعلى الرغم من أنه يربط بين العـــالمين، الا أنـــه كـــان يستطيع أن يحتويه بين كفيه، أو يمسكه بيده، على بعـــده، أو يواريه بسماعاته الضخمة التى تشبه الطبول، وراء كفه الواحدة.
الآن، والبرج يتشاهق، يشاهد على المدى القريب، ميـــدان الشهداء كحلبة للرقص والمصارعة.. ثيران تحبو، فــئران تركض، عربات تتداخل.. وأبواق تشدو، وذئاب تمرح فى الأرض، تكسوها الشمس والنهم، تلهو بأسفل.
(ها هم يا شعبان زملاء الكبت والتعب، كـــاتمو أصـــوات التعجب والصراخ، ينظرون إليك مكتوفى الأيدى، وكـــأنك

أتعس أحمق فى العالم.. بعضهم زملاء الخنادق والبنادق عابرو خط بارليف القدامى، يتطلعون إليك وكأنهم، خلاص، نالوا من الحياة ما يحتم عليهم أن يتخاذلوا، وينظروا إليك باستغراب..)

والشمس تصعد السماء، تحط فوق البرج.

(مديرك المبجل الممدوح من قبل الزملاء يدرك مدى ضجرك من مجرد ذكر سكان"مراقيا" غربا، وسكان المعمورة شرقا.. لماذا هما بالذات.؟ وكلاهما يصيبانك بالغثيان وشعور الانكماش والقزمية..؟)

انزل يا شعبان ولا تكن مجنونا.

(أترى سكان العمارات المجاورة، وجوه تطل من كل النوافذ والشرفات، يرشقونك بنظرات لا تخلو من الأسى، تعرضك للسخرية..؟)

انزل يا شعبان.

وأجراس عربات المطافئ القادمة تطن عبر فضاءات الشوارع والبيوت.

تفترش شباك الانقاذ بأيدى الجنود، يحيطون قاعدة الـــبرج تحت أصوات ضباط الأمن فى مكبرات الصـــوت تنظـــم جموع المشاهدين.

انزل يا شعبان، سوف تأخذ ما تريد.

لكن الأصوات تغيب فى المدى.

يواريه البرج بسماعاته، تتقازم أبـــدان النـــاس، تصبـــح غمامات باهتة.. تتباعد.

وقلبه المرتجف يلتقط ذلك الشـــئ الصـــاعد مـــن بطنـــه المتقلص.

حين استقر بسطح البرج قاعدا.. شاهد ســـكان الســـطوح المجاورة.. يتطلعون بأعين مزرورة وباكية.. كانوا أكـــبر حجما.

نسوة هد منهن العمر الفـــائت قـــوة التحـــرك.. فزحفـــن بأثوابهن البالية السوداء.. كن يتحركـــن بصعوبـــة نحـــو الأسوار، ليكن أكثر قربا.

خيل إليه بأنهن يحاولن رفع أذرعهن لينزل.. ورجالـــهن المنهكون يغادرون حجراتهم المكشوفة للسماء والريـــح.. يلملمون عظامهم القديمة النخرة، ويحـــاولون الاقـــتراب

والنظر، رجال الحراسة القدامى، البوابون المحالون إلـــى السطوح، لا يستطيعون الصعود أو الـــهبوط، فــانتظروا ونساؤهم ميقات الهبوط الأخير.

(يبكون عليك يا شعبان.. أنت لا تحب رؤية دموع بنـــى جلدتك المخشوشنة، فهم لا يبكون إلا مـــن وطـــأة قـــهر مفزع، لا يملكون حياله الا البكاء، أو يفرحون لشئ غايـــة فى البساطة..).

ارتفعت من الأرض النائية كابينة بواسطة ونش انقاذ.

تقلص باطنه والكابينة تدنو كوحش ضار، يحمـل رجـالا يتحدثون بشكل هادئ يزيد من دنو ذلك الشئ غير المدرك إلى فمه.

كانت الكابينة تقترب.. وذلك الشئ يدنو.. يدنو..

مجلة القصة ١٩٩١

-تعرف يا بنى بيت محمود الناشف، أبو عبير..؟

صوت نحيل مضعضع. لامس أذنى وأنا بدكـــان البقالـــة الصغير، مشغولا برص علب سمن علـــى رف جـــانبى.. وبنظرة حذر لمحت وجه الرجـــل خيـــالا ثابتـــا.. قلـــت لأصرفه:

-ولا محمود الطرى..

واجهنى بصلب بدنه على الباب، وغضون الوجه القمحـــى تتلاقى حول عينين ضيقتيـــن تمســـحان الرفـــوف شـــبه العارية..

-ولا تعرف واحدة اسمها هدى، أم عبير..؟

تركت علب السمن. وتوقفت منتبها له ومتفرغا، وبضجـــر ينمو..

-أنت عاوز مين..؟ عاوز إيه بالضبط..؟

أزاح طاقية رأسه الأشيب إلى الوراء بعفويـــــة، وهـــرش مقدمة الرأس وهو يلتفت إلى الشارع كحائر يتذكر ويقول:

-أنا جيت هنا قبل كده.. جيت فعـــلا.. لكـــن الظـــاهر نسيت..

-نسيت..؟

امتدت يدى خفية وأغلقت درج النقود، واقفا بحذر الحواس المتحفزة وراء ثلاجة الجبن والزبادى التى تفصلنى عنه.. قال مستغربا..

- المنطقة دى اتغيرت خالص..

- المنطقة هى هى..

اعتراه ضيق مفاجئ..

- لا.. يا أخى.. أنا فاكر كويس.. البيوت كانت قصـــيرة عن كده بس أنا تهت عن البيت..

خالجنى شك- قلت.

-بيت مين..؟

-محمود الناشف يابنى..

- أقصد البيت.. ملك مين..؟

-والله ما أنا عارف.. بس هو ساكن فوق. آخـــر دور. السطح.

من حوض قفطانه التيلى المكرمش، دعك صدره المشـــعر الشائب ونظر إلى البيوت المتشابهة.. قلت..

- البيوت كتير وزى بعـــض.. لازم عنـــوان.. معـــك عنوان..؟

- الشارع اللى جيت من أوله محطة السكة الحديد..

- كل الشوارع اللى هنا تبدأ عند السكة الحديد..

- أنا فاكر كويس باب البيت، كان لونه أخضر.. أيـــوه.. وقدامه عتبة عالية شوية..

- كل البيوت هنا أبوابها خضرا وقدامها عتب عالى..

أحنى رقبته نحوى.. قال شبه مندهش من نفسه..

-أنا كنت فوق من شوية. من ساعة بس.. البنت قالت لـــى أنزل صل الجمعة. نزلت.. دخلت الشارع. والجامع. اللـــى جانبك هناك.. بس.. موش عارف.. شمال واللا يميــــن.. بس أنا فاكر أنى مشيت شـــوية صغـــيرين مـــن البيـــت للجامع..

تبدل حذرى الضجر إلى أسى..

- الشارع اللى أنت جيت منه ما كان فيه علامة؟.

ملهوف الصوت قال:

-أيوه.. كان فيه واحد خردواتى..

-كل الشوارع اللى هنا واللى هناك فيها خردواتية..

قال بغضب اليائس..

-الله يلعن دى عزومة..

ونظر لساعة عتيقة تحيط معصمه المعروق.. ولانى ظهره، وتطلع إلى البيوت. نهاية الشارع.. والشوارع الموزعة..

قال بأسى الحائر:

-ياريتنى ما جيت من البلد.. ما أنا كنت قاعد هناك..؟!

كان الأسى يتغلغل فىّ.. يرقق لسانى..

-وأنت جاى من أى بلد..؟

-كفر الزيات.. قلت النهاردة الجمعة وآجى أطل على البنت وجوزها.. بقالى مدة ما جيت.. يا دوب حطيت الشيلة فوق.. وقعدت أرتاح شوية من السلم ونزلت أصلى الجمعة أصل جوزها بعيد عنك عيان بصدره. وكان شغال فى شركة فرفرة

-وساكن فوق السطوح..؟

-في السابع.. واسمه محمود الناشف- اتحال على المعاش المبكر.. وهو دلوقت أرزقى على باب الله..

أجهدنى التذكر غير المجدى.. حملت مقعدا..

-على كل حال.. أنتظر شوية.. خد الكرسى وأقعد..

قدمت له المقعد.. وضعه قدام باب الدكان.. قلت..

-يمكن حد يشوفك يعرفك من اللى طالعين من الجامع، أو يشوفك جوز بنتك..

لملم كورنيش قفطانه التيلى.. ملوثا كان بنثار طين يابس.. قال:

-هو فى الشغل دالوقت.. والبنت فوق مع بنتها ولا حد يعرفنى..

جلس يعالج الصمت بالنظر الحائر، وأعالج بصمتى ضيقى الذى اعترانى: قال:

- تصدق أنى نسيت محفظتى بالفلوس فوق فى الشيلة..!!

قلت شبه مندهش..

-ياه ه ه... فلوسك كمان فوق، يعنى لو عاوز ترجع بلدك ما تعرفش؟

أدركت مدى ما يتقنه من مسكنة ربما تؤدى أخيرا لطلبه نقود للسفر..

-تاخد فلوس..؟

لكن بكى فجأة كأن دموعه كانت مخبأة وراء جفونه المتهدلة. قال:

-تشكر.. أقعد شوية أحسن.. يمكن..

رفع طرف قفطانه ليفرك الطين اليابس.. وغافل نفسه، وجفف دمعه بطرف كمه.. بدا سرواله السفلى أبيض يستر نصف ساقيه المشعرتين.. تقلقل بدنه فوق حافة الكرسى وراح يدقق النظر فى وجوه العابرين الخارجين توا من الجامع.. يتمتمون، يحملون المسابح ويتحدثون.. يتفرس الملامح.

واحدا بعد واحد.. يتابع بحركات رأس، حتى لا يفوت نظره وجه أحد. حتى إذا توارى سكن شاردا..

أرقبه بعينى، أنا الواقف خلفه بدكانى.. أرقب انكماش أخاديده المتفاقمة.. وتداخل بحزن وغربة.. سألته..

- تعرف حد منهم ممكن يوصلك..؟

كان قفاه المولى نحوى يتجمد كأن بدنه يتضـــاءل رويــدا فوق الكرسى.. قال:

-والله يابنى ما أعرف.. بس يمكن.. يمكن.

شملنى صمت مستغرب.. الشارع قد انتهى من الرجال..

تركوا ظلالهم تموج برأسه فبدا محزون القلب وساكن..

خامد البدن ومضغوطا حتى خلته خيالا..

أخرج علبة سجائر صفيح - لف واحـــدة- أشـــعلها وراح يدخن وحده.. تبسمت، وقلت له وأنا أتناول بـــراد الشـــاى والكوب الزجاجى لأغسلهما فى الحوض المجاور..

-تشرب شاى..؟

ساهما كان ينفس دخانه الشحيح ببطء، وكمن يحدث نفســه بتساؤل أسيان..

-الوقت بيمر.. الواحد ممكن يرجع بلده إزاى..؟

وليت له ظهرى، أواجه الحوض، وهو يواصل تساؤله..

-بس البنت ممكن تقلق علىّ، وممكن تنزل تدور علىّ فـى الشارع..

نهض فجأة. نظر حوله.. تحرك ببطء المتردد نحـــو منتصف التقاطع.. توقف هناك وحده..

نظرت. وعدت إلى البراد والكوبين.. وضعـــت الســـكر.. والشاى.. على الموقد الكهربى.. متوقعا عودته.. إلا أننـــى أرسلت نظرى إلى التقاطع، كان قد اختفى..

مجلة الهلال- ١٩٩٩

ابتلعنى جوف الترام مثل كل صباح، إلى العربة الأولـــى. ابتعدت بنفسى المكتومة ببقايا النعـــاس العـــالق بتلافيفـــى المجبورة على الصحو بقرقعة الترام الدائر بـــأخر الخـــط ليعاود زحفه عائدا عبر محطات الورديـــان إلـــى بطـــن المدينة..

انتقيت مقعدا بوسط العربة، إلى جوار نـــافذة، والتصقـــت بجدارها الزجاجى، متوخيا تدافع الأبدان التـــى يشـــفطها الباب الخلفى لتسكب على المقاعد، والأركـــان والممـــر. تتكتل مغلولة بالضجر والصبر المتأفف. وأنا. أدفن وجهى كمألوف حالى- فى كتاب، وأبعث النظـــر، بيـــن الحيـــن والآخر، لصعود ركاب الباب الأمامى المتـــاخم لمكمـــن السائق، فوراء ظهره تربض أريكة كبار السن والمعوقين، وربما الحوامل.. وكالعادة، تذمر بعض الوقوف لصعـــود أخرين من ذلك الباب المزحوم..

كانت المرأة صاعدة. تتحشـــر. تدفـــع بصوتـــها المبـــهم تلاصق الأبدان بالممر. تحمل طفلا صغيرا فوق المنكـــب،

وخلفها طفل آخر ممسكا بثوبها المزركش، وطفل ثان بالوراء قابضا على مريلة أخيه الزرقاء. كانا يحملان على الكتف حقائب مدرسية من المشمع السميك. و.. يتقدمون بإصرار متجهمين. توقفوا، والمرأة تحاول الدوران لترى العيال، وتتحرك كثيرا- ملتمسة العذر- ليكون الطفلان بالأمام. ضج محيطها بالضيق، ليفسحوا لها وعيالها مكانا..

أحمد لنفسى تباعدى عن موقعهم الصاخب بالأصوات المبهمة المتداخلة- فيمكن أن يصدعوا رأسى المنزوع- منذ قليل- من لذة النوم الذى يراوغ عينى- وربما يبكون ويصرخون.. مع أن كل الأصوات كانت تضيع معانيها وسط الزحام المتزايد والخانق.

نهض الرجل الذى بجوارى، وأشار للمرأة أن تأتى بعيالها. فانتابنى غيظ..

جاءت وبأثرها الطفلان يوجهان النظر المنتظر الشغوف لوجه الأم النحيل المحقون بالصمت المضغوط..

جلست، وأنزلت طفل المنكب وأقعدته على حجرها وهمـــا يواصلان النظر المنتظـــــر المقـــرون بـــالفرح لوجهـــها المتحرك مع جسدها المتخبط بجسدى النــــافر الضـــائق.. أشارت بأصابعها لأذنيهما وهما ينظران- بلــــهف- إلـــى حقيبة قماش بيدها التى أشارت لهما أن ينتظرا حتى تـــأخذ أنفاسها، فراحا يبعثان العيون خارج النــــافذة بقلـــق، ثـــم يحولان النظر إلى الأم بضجـــر الموشـــك علـــى تفجـــر البكاء.. أغلقت كتابى عندمـــا زغدنـــى مرفقـــها- قلـــت بضيق..- وبعد معك؟! كفاك فرك..

لم تعرنى أذنا- اغتظت- وظلت سادرة فى تحركها بيـــن العبث فى الحقيبة وتعديل جلوس الطفل الصغير الذى بكى ونظرها الناهر لوجهه الذى أزعن للصمت، بوقت تطلـــع الولدين وأصابعهما تشير لآذانهما بتذمر واضح..

حملت رأسى المنقور بالغيظ على كفى مائلا بنظر جـــانبى إلى الأم. وهى تفتح الحقيبة.. ومن بيـــن زجاجـــة مـــاء، وأرغفة مطوية وبعض غيارات الصغير. أخرجت جـــهازا صغيرا، ملفوفا بسلك بطرفه سماعة أذن. حين وضعتـــها

فى اذن الطفل الأول تفتحت مسام الوجه بالفرحـــة.. ثـم فتحت الجهاز بين نظر الفرح وقدوم الصخـب، وضعـت أصبعين من "الحجارة"، ثم أودعته جيب المريلة، لينتشـى الولد الآخر وهى تخرج جهازه. وتضع السماعة فى الأذن والحجارة فى الجهاز. وتودعه جيـب مريلتـه- ليخبـو غيظى- لتتقشع لحظات الترقب الملهوف، وتتزاح غيامات الجهامة عن الوجوه..

كان الطفل الجالس قد بدأ ينتعش مع إخوته الضـاحكين. والأم يغمرها ابتسام صامت مع سكون الجسد وهى تطلـق نفسا مرتاحا بلحظة اختلاسى النظر الأسيان المشفق.

مجلة حواء- ١٩٩٩

كانت المدينة ترتعش بحضن الليل البارد..

الطريق خاو، ينسج السكون الرتيب المخدوش بصوت مألوف لترام مزحوم يزحف ببطء.. توقف فجأة بوسط الشارع الممتد المظلم آخره.. رفعت رأسى المنحنى الغافى.. أنظرعبر رؤوس ركاب آخر الليل الكسولة.. رفعوا أثقال أجفان التعب ونظروا عبر الزجاج المغبش إلى الخارج المعتم، نستطلع الموقف المباغت..

وقفت موجها عينى نحو باب النزول المجاور لمقعد القائد..

فتح الباب. لكن أحدا لم يصعد..

نظر البعض من النوافذ.. لعل العامود العلوى انخلع من سلك الكهرباء أو صدم الترام أحدا.. إلا أن خلو الطريق أجلسنى فى لحظة وثوب أحد الركاب وهرولته نحو الباب المفتوح وامتداد ذراعه. التقط طفلا صغيرا مشعث الشعر وأشقر، يوارى اصفرار وجهه غبار متكلس.

أوقفه بأرض الممر. وعاود مد الذراع مع انحناء جذع ورفع بدن امرأة قعيدة كانت تبغى الصعود زحفا فوق الدرج الحديدى. بدن ناحل هزيل فى ثوب رث فضفاض،

برأس منكوش ومعصوب بخرقة ممزقة.. محمولة فـــوق ذراعى الرجل.. أفسح لـــها مكانـــا بيـــن قعـــود أريكـــة المعاقين..

حين وضع الجسد، تدلت الساقان مشلولتين.. اقترب الطفل بيد الرجل. توقف برأسه قدام حجر أمـــه، يتطلـــع بعيـــن اللهف المنتظر لكيس بلاســـتيكى كـــان منحشـــرا تحـــت إبطها.. أشارت له أن يسكت، فاختلج وجهـــه بـــالغضب. حدقت به أن ينتظر..

كان الباب قد أغلق ليواصل الترام زحفه الملول نحو ظلام آخر يشمل منطقة مكابس الأقطان بالقبارى..

فتحت المرأة الكيس بحذر ورفق شديدين.. أخرجت أرغفة مطوية محشوة "بغموس" غير واضح.. فتحت فم الجـــوع وقضمت بنهم، والطفل يتابع عودة اليد القابضـــة والتـــى توقفت قدام الفم الماضغ بصوت عال مقزز.. تبتلع، يختلج الوجه مع العينين الغائبتين والطحن المأخوذ بلذة القضـــم والابتلاع..

رفع الطفل يده الصغيرة ولامـــس المرفـــق المتحـــرك.. سادرة هى فى القضم والمضغ.. زغد الذراع ثانية بوجـــه مزمجر.. نظرت إليه.. اقطتعت لقيمـــة. تناولـــها الولـــد

بهلع.. مضغ مرتين و. ابتلع.. ونظر.. ثم زغد الذراع بالمرفق.. منحته لقيمة بعد أن أفرغت حشوها باصبعين. وضعت ما بهما فى فمها ثم لحستهما بلسان مشغوف.. تطلع الطفل وهو يبتلع.. تمضغ هى طويلا. وهو يبتلع بسرعة..

أخرجت رغيفا آخر مطويا على حشو ما. اقتطعت لقيمة.. تناولها بضجر وهى تقضم.. لم يأكل.. صمت.. أشار لفمها، يريد مما تمضغ.. رفضت بهز رأس.. بكى هازا جسده الهزيل.. أخرجت من فمها قطعة لحم بيضاء متجلدة. قربتها من فمه. تقزز، ومضغ لقيمته، وهى تعيد القطعة لفمها. وتمضغ طويلا. قبل توقف الترام بالمحطة التالية. أشارت لأحد الرجال.. شال الساقين المشلولتين. الظهر المقوس الضامر المنحنى على صدر ذابل وبطن مشفوط.. وضعها فوق رصيف المحطة.. وتناول الطفل من رجل بالداخل، وضعه إلى جوارها، وصعد. وأغلق الباب ليواصل الترام زحفه إلى ظلام آخر..

جريدة المساء ١٩٩٩

[وقد قال السيد الوزير ردا على سؤال وجه إليه من أحد اعضاء المجلس.. إنه بالانتاج- نستطيع الارتفاع بمستوى الفرد]

-الشاى..

وضعت الكوب فوق المائدة.. وولتنى ظـــهرها.. أطحــن الجبن والخبز بأضراسى. ازيحهم بالشـــاى.. [وبالانتـــاج نرتقى بالمجتمع. و..] اقفلت المذياع.. أكملت فطـــورى.. عادت لتقول..

-أسرع.. القطار سيفوتك..

دخلت فى حذائى.. استعذت بـــالله وتوكلــت.. تنـــاولتنى السلالم، قالت فى أثرى:

-مع السلامة.. لا تنس البرتقال..

أمد الخطى فى طين الأرض الـــلازج.. أتفـــادى أطفـــال المدارس.. أصعد جسر قطار الضواحى.. تمنيت طويــــلا لو ارتقيت السلم الوظيفى وحصلت على مرتـــب يمكننـــى من تغيير هذه المواصلة السلحفاة.

تحسست جيبى، بقاعه بعض سجائرى. شديدا كان زحـــام المحطة- حين ظهر القطار من بعيد. تحفز الناس- عندما جاء، حشرت نفسى بين اللحم والثياب والعرق.. أشـــرئب برأسى، استنشق هـــواءا لا يخلـــو مـــن دخـــان غريـــب الرائحة.. ترتج كتل اللحم مع ارتجاج العربات.. قرقعـــة العجلات. على عمل من يوم أمس لـــم ينجـــز.. ســـمعت صوت المحصل. مددت ذراعى لاستخرج ثمن التذكـــرة.. بكى طفل.. شخط رجل.. الجيب بعيد عن متناول يـــدى.. محشورا كان.. تأوهت أمرأة.. رفعت أخرى سلة خضـــار فارغة إلى أعلى.. اسواق وسط المدينة أرخص.

تهادى القطار بين الظاهرية وسيدي جابر.. سادت القلاقـل والغمغمة.. تســـاؤلات.. ضيـــق.. تداخلـــت أصـــوات.. رويدا..

بدأ القطار في التوقف. زأر الرجال فى غضب.. توقـــف القطار تماما.. لا مواصـــلات أخـــرى بـــهذه المنطقـــة.. تحركت ابدان.. تذمرت النســـاء.. إختلطـــت اصـــوات.. تعلو.. وبعدين؟! كل يوم؟! متى يطلع طوالى..؟ زفـــت..

يلعن.. خل بالك.. الأرض نفسها تعبانة.. المفروض يلغـوا هذا الخط.. ها نحن هنـــا قـــاعدون.. فلـــنر آخرتـــها..؟ تأخرنا.. يا عالم عيب.. ننزل وندفع القطار.. هأ هأ هأ..

لعنت كل شئ، هبطت مع الهابطين.. أبصرت القضبــــان الممتدة بطول الطريق قد زُرِعَتْ بالناس.. واقفون علــــى مضض وصمت.. قاعدون علــــى القضبـــان.. متقـــابلون ومتفرقون.. يتطلعون إلى الفضاء المترامى آمليــــن فـــى تحرك القطار، يتمنون حدوث معجزة تهبط من أعلى تدفع العربات وتنقذهم من ضياع يوم آخر.. الوقـــت يمتطـــى التجاويف، يلهب الأجساد بالقلق.. تناثرت أبـــدان أخـــرى عند الأزقة المؤدية إلى شارع أبى قير، ذلك البعيد.

فكرت فى أمكانية وجـــود موضـــع لقـــدم الآن فـــى أى أتوبيس.. ونصف أفراد المدينة–العاملين– تحملـــهم هـــذه القطارات كل صباح.. بقيت.. ولا بشير يبشر بقيامه.

–خذ يا رجل.. أقعد..

قالها رجل إلى جوارى، وناولنى صفحـــــة مـــن جريـــدة الصباح.. افترشتها مثله على القضيب وقعدت.

-نصف عمرنا يضيع فى هذه المواصلات..

قدمت له سيجارة.. دخنا فى صمت.. قال..

-إجازتى كلها انتهت هنا.. بين قطار معطل وحادثة.

-فى المصلحة لا يرحمون المتأخرين..

-يجب ان تصلح السكة الحديد قضبانها..

-التذكرة اصبحت بشلن.. قلنا ماشـــى. تعلقـت سـيدة بسياج الباب، مدت قدمها وهبطت.. أسرعت متبـاعدة وهى تحمل عمود طعام- نكست رأســى- تفحصـت عموداً بدا نصفه من الجريـدة التـى تحتـى، أتـابع حروفه، كنت أفكر بالوقت نفسه.[وبارتقـاء الانتـاج وجودته..] انتهيت أمس من توصيل خطوط الوصلـة الأولى من الكابل المعطل.. [يمكن التقـدم وملاحقـة الركب ومواكبة الدول المتقدمة، فلدينا مـن..] إن لـم ينته الكابل اليوم سأضطر للمساءلة.

- يبدو أنه لن يتحرك.. ويلزموننى بتعطيل مائة خـط تليفونى..[المهارات ما تدهش عقول العـالم الأكـثر تقدما..]

-يلعن.. وجودى فى البيت غلط.. طول النهار- أسكت يا ولد.. اسكت يا بنت..(فلو..) هات فلوس.. تعال ساعدنى.. كلام فارغ.. [فلو وضعنا تلك المهارات].. البالوعة مسدودة من أمس، انحشرت فيها خشبة.. قلت أسلكها حين أعود.. خذ ولع.. كان يقول، قدم سيجارة.. وسكت.

يوم آخر تصطلى فيه رؤوسنا تحت الشمس وندوخ- كان القطار النائم.. نائما. وبعض الركاب.. غارقين كانوا فى صمت غريب.. اشعلت لصديقى سيجارته- وهو يقول:

-أرجع احسن إلى البيت.. وأسلك البالوعة..

قلت وانا أنهض: خذنى معك.. وأردفت اقول..

-بكم كيلو البرتقال؟.. لم يرد.. وافترقنا..

مجلة المنهل ١٩٩٧

رأيته واقفا فوق الرصيف الآخر لمحطة باكوس، موجها وجهه نحو أشعة الشمس بنظارته الأنيقة السوداء. ساكن البدن كالمنتظر القلق. لوحت بيدى.. لم يرنى.. لوحت مرة أخرى رافعا ذراعى لنتبادل تحايانا كمألوف الحال. لم ينطق أو يحرك طرفا.. لم يرنى..

رصيف قطار الضواحى النازح إلى المدينة مزدحم.

ورصيف قطاره الصاعد إلى مناطق الرمل أقل ازدحاماً.

رفعت ذراعى أعيد التلويح بقوة أرعشت بدنى لألفت أنظاره، وكان قد ولى وجهه بجسده نحوى. رافعا ذراعه بآلية ليهرش رأسه... و. تجاهلنى.. اعترانى شعور باليأس الغاضب.. أهو صلاح صديقى..؟!.. يتجاهلني..؟! أرغمت نفسى على النظر بعيداً.. لكن عينى تدوران هناك، وتعود لتحط عليه.. تجاهلنى.. فتجاهلته أنا الآخر..

أدرت وجهى إلى اليمين حيث يأتى قطارى المنتظر.. وهو لم يزل برأسى.. نظرت إلى اليسار حيث يأتى قطاره المعاكس المنتظر.. ويراودنى.. لم أذكر أننى فعلت

شيئاً يمكن أن يغضبه ويفتر العلاقة الوديـــة المتبادلـــة.. لوحت له، فقد تشبث بذهنى.. راجياً- ببالى- ألا يأتى أحد القطارين فيفصل فيما بيننا دون إثبات براءتى ومعرفة مـا غيّر شعوره الطيب نحوى..

فكرت فى النزول من فوق الرصيف- فلأركـض إليـه.. أواجهه.. لمَ يتجاهلنى..؟ لكن.. خلع نظارته بثبــات يـد حذرة.. أخَرج منديله بحركة آليه مفرطـة فـى الزهـو السخيف.. مسح عرقاً من جبهته وبين عينيه المفتوحتيـن الواسعتين، أضحكانى كثيراً بغمزهما المرح بأيام خاليـة.. أخفاهما بالنظارة ووقف ثابتاً..

اغتظت، ووثبت من فوق الرصيـف قبـل مجـئ أحـد القطارين.

صديقه أنا الذى انحل بدنه القطار..

وصديقى هو الذى- كثيراً- ما كنت ألمحه فأخترق أبـدان الممر المزحوم- لو كان جالساً- ارتمى فى أحضانه- ثـم أصافحه- وأقبله، وأعيد احتضانه بشوق. أو يلمحنى هـو، مضغوطاً بين زحام الظهيرة المتكـاثر.. يبـاغتنى، ثـم يضمنى إلى صدره بقوة نتوحد بها. ويضـع يـده فـوق

كتفى- اقشعر بالمسرة- وكأنــه يبــارك رحلــة الشــقاء اليومية.. يغمرنى شعور حميم بالألفة حين يســألنى عــن أحوالى. أقول.. موش بطال. أسأله عن أحواله.. يتأســى بابتسام الراضى، ويحكى عن متــاعب الســكر.. وعــن متاعب العمل اليومـــى، ومحــاولات ســكوته الجــبرى وتصاممه وتعاميه عن أحداث تجرى حوله مــن زمــلاء الحجر الصحى بالجمرك.. عن فاقدى الضمائر والأخلاق. رجال امتلكوا العربات الملاكى، وكانوا يركضون- قبــلا- وراء القطار والترام بأحذية مثقوبة.. أقول ضاحكا..

-كان بإمكانك ركوب عربة ملاكى مثلهم..

ينفعل بغضب نافر، مندهشا برفض..

-أنا؟!. أعوذ بالله.. هو الحلال نافع.؟!!..

صعدت الرصيف المواجه.. تلمست طريقـــى- باتئــاد- بين.. أبدان البشر والضجر.. وفى لحظة اقــترابى مــن مكان وقوفه؛ هرولت فتاة صغيرة بجــوارى. تجــاوزتنى بشغف حامل المسئولية الأميــن.. توجــه إليــها- هــو- بحواسه. قال لها وهى تتأبط ذراعه..

-قطعت التذاكر..؟

وكنت أدنو منه بخطوى الوئيد لألتصق به ممازحا.

-تذكرتين يا بابا..

- القطار على وشك الوصول..؟

سأل هو البنت قالت..

- إن شاء الله..

اقتربت أكثر والبنت تنظر لوجهى بابتسام ولم تنطق، في لحظة استدارة رأسه بصمت وثبات كمن يتذكر أو يتذوق- بالشم- أنفاسى.. فالتصقت به وقد أمسكت بيده وهو يقول بوده المألوف.

- من..؟

وقد صافحنى بفتور أوجعنى.. قلت.. بحسرة مازحة.

- يا خسارة يا صاحبى.. يا خسارة.. ألم تعرفنى؟!

تنبه وهو يشد على يدى بحرارة وقوة أسعدانى، والبنت تشير بأصبع على أنه لا يبصر.. صاح..

- أخى أبو حميد..!؟

وأنا أرتمى فى حضنه، وهو يطوق جسدى المرتعد بذراعيه. يضمنى بقوة كمن يذيبنى فى داخله.. ويقول..

-نمت ذات ليلة. وعندما صحوت، وجدت نفسى هكذا: بكيت فوق كتفه. غير عابئين بقطارينا اللذين رحلا دوننا.

جريدة المساء ١٩٩٩

أطل الصباح من فتحة باب البدروم الموارب.

القى تحيته عليهما، ضوء انطرح بعرض الفتحة على الارض.

كان الصمت محصورا فى تجاعيد العجوز المكومة فوق الأريكة، وبين ولدها الكهل المنحنى بعبوس وجه يعالج- بهلع وقبل اشتعال الدماغ- دخول قدم الجورب المثقوب فى حلق الحذاء المتهجم، ضاغطا على عصب متوتر يوشك على الانفجار فى وجه أمه الواجم ونظرتها المرتشقة برأسه الفائر..

كان لابد أن تنطق بشئ ما أو يقول هو شيئا لفك الصمت المستفحل المشحون بغضب بائت معهما منذ الأمس.. لكن.. شرخت هى الصمت والدماغ بلسان مغتاظ.

-وشك ماله.؟ مقلوب على الصبح..!

وكان يتحرك صوب الباب، ويطأ خط الضوء المنطرح، حاجبا اياه عن الارض وعن وجهها المتكاثر وجومه.. يبغى الفرار وتلافى كلماتها المنفرة ردا على صمته

وعبوس وجهه المنفر.. لاحقت ظهره قبل اختفائه برشـــق كلمة واحدة: غور..!!

شوّح بذراع يزيح السأم المـــراود. وقدمـــاه المتســـرعتان تتواريان ليسقط الضوء على الوجه العجوز، منطبق الفـــم اليابس على الخواء. وهو يغادر الحـــوش لينصـــهر فـــى صخب النهار، يغسل بصهد الشمس فى رحــــاب الارض بحثا...

تقوقعت فى قتامة ثوبها الازرق المتسع.

مصلوب رأسها المعصوب، يواجه الباب المفتوح.

تبصر بخوف خفى آخر ظل الولد الذى يركض توأ مخلفـــا لها سكونا كئيبا توسد الروح..

صمت مستوحش، حاولت كســـره بدفعـــة ذراع فتخـــاذل لسحق ظله المطبوع بالمخ الواهن..

(يغور.. غورة..)

وعين الجسد الملموم ترصد شريط الضوء المنطرح، لعـلى الولد يرجع الآن، ويظلل الضوء بظلـــه ويقـــول شـــيئاً.. لكن..

لا تريد منه كلاما. ولا أكياسا منه تريد.. كيسه الذى كـان يأتى به فى بعض الليالى لم تعد تريده.. انقطع الكيس مـن اربع ليال.. نعم ماذا حدث.؟ لا شئ.. لكن الكيـس تبـدل ليصبح وجها عبوسا..

فكت عصابة الرأس السوداء..

سحبت من تحت حشية الأريكة مشطاً مصفراً..

وحدقتاها ضوء منطرح.. لم تشب الضوء آيـة شـائبة أو ظل.. ولت الوجه شطر الحائط الجانبى، كأن ظل الولـد سيطأ الضوء الآن.. مشطت ما تبقى من شعيرات منحولـة ومصبوغة بالحناء. معيدة النظر، بطـرف عيـن، إلـى الضوء..

رفعت المشط بيد مرتجفة، ونزلت بالشعيرات إلى العنـق المتكلس بلون التراب المحترق..

مر نهار أمس دون أحبة.. نهار مجهد ثقيل الخطى. ظـل يزحف بعناء حتى ولج الليل من الباب، وجاء الكهل فـاتر الحركة.. مكبوساً.. وعابساً وبلا كيس..

بليال فائتة جاء بأكياس، وبوجه ضاحك.

أقدام ابنائها والاحفاد غائبة.. لم تلــوث حصــير الارض بوسخ الشارع.. تشعر بقدومهم، يسبق صخبــهم هرولــة الخطوات..

يملأون المكان. يتزاحمون..

ينقلون إليها احداث الاسبوع المنصرم..

يخزنون برأسها المصغى الضحــك والكــلام وصــراخ العيال.. أقوال تؤنس الروح.. تشغلها فترة غيابهم لإسـبوع قادم.. كل شئ كان يتبخر بعد انتهاء الزيارة..

الأحبة تتاءت بهم الضواحى..

يعودون يوم الجمعة لمســقط الــرأس.. يســلبون منــها الروح..

***

لملمت شعرها المتقصف بأسنان المشط..

ضوء الارض يزاور العينين المتأهبلين للاشاحة فى لحظة سقوط ظله.. سوف تتناوم- عندما تشعر بقدومه- متوقعــة ملمس يده لرأسها بليالى حضور الاكياس..

لكن الضوء المطروح مازال وحيدا..

بتلقائية رأس شارد، جمعت شعيرات الوهـــن.. أحصـــت أسنان المشط.. ربطت الشعيرات حول أصبع القدم..

الأبناء ينعمون الآن فى ظلال البيوت والزوجـــات.. هـــو المسكين الأوحد هجر بيت الزوجية.. بقلب مقهور.. حيـــن جاء مهاجرا ثائر الروح، يحمل همه فـــى صـــرة ثيابـــه، اشارت عليه بالصبر والبقاء والتريث.. لكن التريث تـــآلف مع المكان والخاطر المستقر وتداولها الزمن الزاحف..

- تأكل..؟ عندى بطاطس..

- تأكلى انت بطاطس.؟

- لا أريد أن اتعشى، نفسى مسدودة.

- إتعشى معى.. سأخرج واشترى قشدة.

- قشدة..؟ طيب.. سأكل معك لقمة..

- تشرب شايا معى..؟

- استريحى انت سأعمل أنا الشاى..

- طيب.. أقوم لأغسل البراد..

- البراد مغسول والأكواب..

- يا ولد يا لئيم.. أنا مازلت بصحتى..

-بل أنت ابنتى الصغيرة الدلوعة..

-تذكرنى بأبيك الله يرحم ايامه. كـــان مثلـــك هكـــذا، عجوزا مرحا. لكن عندما يكشر قل يـــا رحمـــن يـــا رحيم..

- كم سنة عندك يا أم.؟

- أخوك الكبير "البكرى" عنده كم سنة..؟

-ستين.. قرب يطلع معاش..

- حط على الستين خمستاشر..

- هيا لتنامى..

- أنت أولا حتى اغطيك.

-طيب.

- أعدلى الغسالة في الصباح.. عندى غسيل..

- أقعد غدا لأساعدك.؟

-وعملك يا بنى..؟

ران على المشاعر وجوم الخجل الدفين، تصاعد ليصبـــغ الوجه بالقتامة. العبوس.. ويخمد ضوء المصباح ليســـود

ظلام بدأ ينهك الرأسين.. وفى عمق الليل تتردد أنفاسهما، بهدوء ودفء يعبق البدروم بالمسرة المطمئنة..
اطمئنان يستشعره الاخوة القائمون فى البيوت البعيدة.. مع الأم ونيس.. لم تعد وحيدة..
لن تمكث فى كنف زوجة الأخ، أو زوج الأخت لأكثر من يوم وليلة.. تحتج دوما بمن يشغل رأسها رافض البقاء..
الولد هناك ينتظرنى..

***

عصبت الدماغ، ولم يزل البصر يختلس النظر الحذر إلى الباب المفتوح المؤدى إلى الحوش..
تعبر العينان شريط الضوء الثابت.. انتظار يزهق الروح.. غورة.. يحضر أو لا يحضر.. يكفينى قرف وجهه الملتوى.. أكياسه لا أريدها.. فقط. لو يعدل وجهه.. غورة.. يعدل أولا.. وضوء الارض يحتويها..
لعل ظله يهل الآن.. ينطرح على الضوء الذى اصابه الهزال..

أنفاسه مطبوعة على الجدران والصور.. علـــــى ســتارة الغرفة "الجوانية" المار من خلال ثقوبها الزمن.. صـــــور شبابه محشورة بزوايا البراويز والآيات القرأنية.

متساندة.. تشاهدها.. تطل بفخر زائل، من بيــــن صــور الابناء الموزعة علـــى الحــائط، تطــل فتولـــى الوجــه الغضوب..

ما كان عليك رشق ظهره شبه المقوس بالزجر اثناء تسليم نفسه لشر الدنيا ومخاطر الطرق.. لكن ليس طفــــلا هــو يمص أصبعه لقد جاوز الخمسين.. لن تأكله الدنيا.. بــــلا نيله..

حياكا كان لبــدل الافنديــة القدامـــى المتحليــن بــالادب والوقار.. لكن الزمن الغشوم سحق أسطوات الحياكة بعتـو اقدامه ومضى، وتركهم يعانون سخف البطالة والســـأم.. يهيمون بحثا عن هؤلاء الرجال. رحل البعض عن الدنيــا، والبعض يلبس الجاهز..

***

يتزحزح الضوء فى غفلة منها.. يتضاءل، ويكاد يصعـــد العتبة.. ثقيل هو الجسد.. تحث الخطو بوهـــن وانحنــاء ظهر يعتدل رويدا وبعد الكثير مـــن التحــرك.. غســلت الاوانى المركونة.. حمصت كمونا على النار.. طحنته فى الهاون.. ساوت برطمانات صغيرة.. ملح وشطة وكمـــون فوق رف صغير..

فصصت رأس ثوم.. قشرته. وضعتـــه فـــى برطمـــان.. وصنعت كوبا من الينسون..

الضوء يراوغ العين.. جاءت بكيس عدس اصفر صغـــير وطبق. راحت تنقى العدس وترشف الينسون..

حين فرغت، تقوقعت بركن الأريكـــة.. ليـــهيمن الخيـــال المتوقع على الرأس ويستبد..

رصدت الضوء الكابى.. وسمعت جلبة بالخارج.. وأثقـــل النعاس العابر التلافيف فمال الرأس..

سعاله كان يطن فى الحنايا.. سعاله المتأوه عـــبر الليـــل الطويل. وشخيره المتقطع يؤرق نومها المراوغ..

-ولد يا بدوى.. ولد يا بدوى.. أعدل دماغك.. صـــوت مبحوح، ينسل بشجن قلب حان فى عتمـــة البـــدروم، يطامن قلبه النابض بهدوء نوم رائق..

يخشى أن يصحو ذات صباح فلا يسمع لها صوتا..

-طيب.. طيب.. هل تسمعينى أشخر.؟

يصحو فى لحظة اختطاف النوم لـــها.. تتغمــس.. تغــط بحشرجة تراود أذنه..

-يا أم.. يا أم..

على الفور تصحو ومن بين النعاس المراود تقول

-يا ولد أنا لا أشخر.. أنت ملأت الحجرة بشخيرك...

ويتناولها النعاس الخاطف.. ويشـــخر هــو.. يتناوبــان.. يتناجيان بأتلاف مؤنس..

لو يفك فقط التواء سحنته..

اضمحل شريط الضوء، وتراجع.. توقف على عتبة البـاب كمودع يغافل الرأس والوجه المدفون بيـــن الذراعيــن.. ينوى الافول.. طال غيابه ولم يبدله ظـــل.. ظلـــه الـــذى

سيخطرها بالقدوم لتولى الوجه الغضوب شطر الحائط قبل امتثاله قدامها.

متوقعة وضع كفة الحانية على الكتف، آخذا رأسـها فـى صدره.. وهو يطبع على الخد قبلة تصالح، ويهمس (هيـا يا أم.. قومى)

أيمكن أن يغيب عن البيت أكثر..؟

أذهب لمكان آخر..؟

أى مكان لن يطيق عبوس وجهه..

كان الضوء قد غادر العتبة إلى الحوش، رماديا وموشـكا على السواد..

حركت مفاصل البدن.. فرفصت إلى جوار العتبة.. ترقـب بقايا الضوء الغارب بقلب واجف..

مجلة الاتصالات ١٩٩٩

اعتادت أن تدخل فى الصوف.. تقبع فى تضابيره، خلــف سنارتين متقاطعتين كحربتين تمنعانها عن الخروج.
يتغلغل فيها الخيط المضفور، يلتف حول المخ الراكد.
كان يتوجب عليها ألا تخرج إلى ســلطان القلــب دونمــا اكتمال نسج البلوفر.. والسلطان. ابن كان يملأ فراغ القلب بتواجده..
أخذوه بالأمس القريب، وتركوا على الحائط خياله. إطــاراً قديماً وكالحاً يضم العائلة.. كان يتوسط الأب والأم وفــى الخلف توقف الأخوة الصغار يبتسمون. كان شــابا قويــا حين سكن الذاكرة..
يحملها بين ذراعيه والخجل، يدور بــها أركــان البيــت ويضحك وتوارى خجلها فى محاولات التخلــص. تــهز الرأس المخطط شعره بالأبيض وتقول:
- إنك تذكرنى بأبيك الله يرحمه.. آخر مرة جاء. كــان يحمل مخلة متاعه العسكرى. قال لها. أن جو الجبــل الراحل إليه سيكون بارداً. قالت له. أنها ستصنع لــه بلوفراً يقيه البرد، صنعت له جوربا وتلفيعة وطاقيــة.

أما البلوفر، فيجب أن تعد له صوفا جديدا، وسـيكون جاهزا عند قدومه بأول أجازة.

كل ما قد صنعته من الأشياء الصغيرة، كـان مـن بقايـا الملابس الصوفية القديمة.. لابد الآن أن يكـون جديـدا.. صوف مئة بالمئة، ليصبح له درعا يحميه مـن لفحـات الريح.. نظرات زملائه الجنود حين يرونه فيتمنون مثلـه، ومن نظرات جيرانها الذين يرونه ولا يصلّون على النبى.

فليكن بلوفر ذا غرزة جديدة لم تطرق ببال أمهر الصنـاع، حتى زميلاتها المدرسات.. لكن شلات الصـوف الجيـد ليست بزهيدة الثمن.. ستقتصد من معاش الزوج وراتبـها الشهرى، وتبتاع الصوف، فى ذلك اليوم البعيد، لم تنتظـر لآخر الشهر حتى تقبض راتبها والمعاش، فقد تحدد رحيـل الولد، فى العشرين من نفس الشهر.

باعت فردة من قرطها الذهبى وقالت فى نفسـها.. يكفـى فردة واحدة معى. وخبأتـها فـى صدرهـا.. وابتـاعت الصوف، ضحك القلب منها.

واقتعدت مكانها من الأريكة المضعضعة، المقابلة لباب الشقة، عارية كانت يلهو بفراغ غرفتها صمت مطبق، تعشش فوق أثاثها المحطم مساكن العنكبوت، تنعكس بزجاج عينها الصورة. ويداها الشغالتان تبدل السنارتين فى غزل الصوف، وتضحك.. تتلاقى الغضون.. ترمق الباب الموصد، وإحساس قوى ترسب بالقلب بأن الباب سيدق، سيجئ مع الليل، عندما تبلغ الساعة المحددة. ربما العاشرة، أو بعدها. أو قبلها، يهبد رأسه على الباب.. يزفر فى الخارج زفرات التعب.. يشخشخ بسلسلة مفاتيحه..

هذه المرة سوف يدخل.. قارب البلوفر على الانتهاء..

كان الزمان يتغير فوق رأسها، يدور الليل، ويدور النهار.. يطلان من نافذتها المواربة.. يتعمق فى شعرها الملموم فى طرحة بياضها كالح، زمن عارم، تداخل فى الجلد، الأمعاء.. لكنها، موقنة بأنه عائد لزيارتها، ربما سرحوه او انتهت فترة تدريبه.. تجنيده.. الباب الموصد لن يظل موصداً أبداً.. لابد أن يدقه، هو فى الليل.. تعرف

هى دقاته.. نبض قلبها يحس به.. تتلقى دقاتـــه الرتيبـــة.. دبيب حذائه على أرض البسطة..

***

قال لها الزوج.

- كفى عن فضائحك يا امرأة..

انحنى بدنها السمين، تكور، عبثت تحت الكنبة..

- نحن لم نزل فى أول الليل يا امرأة..!

سحبت الحذاء الميرى ذا الرقبة..

- أفعالك هذه لن تخرجها..

مسحت بأطراف أصابعها أرنبـــة أنفـــها الممتـــدة بشـــكل اعتيادى، جلست إلى جوار الحذاء بأرض الصالة.. قـــالت بصوت ملؤه التصميم.

- أنا وراءها والزمن طويل..

بسحنة يكمن الجد بها، رفعت طرف ثوبها البيتـــى القديـــم والمزين بالنجوم المتباعدة، كاظمة بلب القلب مقتا- طـــال زمن الخطة المرسومة المحكمة، امتد.. لكن صبرها لـــن

ينفد، بل تزداد إصراراً.. تتجهم ملامح الوجه المنكود، ثـم يعتدل ويفرج عن بسمات عناد مستفحل..

- تفعلين ذلك دائما، وبدون جدوى..

- أسكت.. أنك تكسر عزائمى.. خيبة..

قالت وهى تثنى ردفها وتقرب سـمانة سـاقها المنبعجـة لتلبس الحذاء الميرى..

شاهد هذا اللحم الأبيض المكشوف من جسدها، ذلك البعيـد عنه دائماً، النافر منه.. ابتلع ريقه السائل.. فكر فى هـذا الجسد الذى أصبح قطعة من إسفنج مشبعة بمـاء الحنـق الأسن والعناد، لم يعد فى مقدوره اعتصارها. ولو اختلـس ساعة الرضا للتقرب إليها، فجرت برأسه حنقها الآسن..

- سأريك كيف أجعلها تترك الشقة..

نهضت واقفة.. تلمست الخطو الوئيد الحذر إلـى نهايـة الصالة، همس لها من مكانه فوق الكنبة..

- مازلنا فى أول الليل.. انتظرى قليلاً..

أشارت له بأصبع فوق الفم أن يصمت..

ضغطت بنفس الأصبع زر النور فانطفأ مصباح الصالة..

حين اكتنف الظلام الشقة، انبعث من شراعة الباب ضـــوء البسطة خافتاً.. همس لها..

- بعضهم لا يزال يقظاً.. كيف تخرجين.؟

- هذا موعد نومهم.. هات العباءة..

- يوماً ما. سيراك أحدهم لتصبح فضيحة..

لبست العباءة، بدت كتلة سوداء.. ضخمة الأكتاف.. ملقـى خلف الرأس "طرطورها"..

- هؤلاء ينامون كالموتى..

كان يعلم، أن جاره ذلك المقابل.. منـــهوك القـــوى، ينـــام مبكراً، أو بمعنى أدق- أراد أن تدركه هـــي- أن امــرأة جاره، تعد للمساء نفسها، تجمع أولادهـــا الخمـــس مـــن الثامنة، تطعمهم وتنيمهم.. ثم يحدث بعد ذلك ما يحــــدث، ينطفئ النور، يمضى الوقت.. ثم يوقد الوابور.. يصغـــى هو بأذن محرومة وبدن مفتقد اللذة، إلـــى صـــوت المـــاء المسكوب "يطرطش". ارتطام كـــوز الحمـــام الصـــاجى بأرض الحمام. قال لها.

- حقيقة. تبدين كالعفريت.

تطلعت إليه بعين ثاقبة.. هذا ليس وقت مبادلة الحساب، مطارحة القرف.. كان ضوء البسطة قد انطفأ. وران الظلام..

همس الرجل على مضض..

- هذا والله حرام..

وقالت وهى ترفع الطرطور وتغطى به رأسها..

- الحرام هو أن تقعد امرأة شمطاء ومجنونة فى شقة أربعة مطارح وحدها.. وابنتى تبحث عن غرفة بصالة منذ ثمانى سنوات لتتزوج.

سمعت صوته من خلال الظلام يقول..

- ليست عجوزاً جداً، مازالت صحيحة الجسم.

لم تره هى فى هذه العتمة، وإلا خرقت عينيه المغبشتين بنظرتها الثاقبة..

ولم يرها هو، وإلا ما استطاع لفظ هذا الكلام، قالت..

- لذلك كله.. سأخرجها..

شدت ترباس الباب بحذر شديد، ومدت للخارج قدما..

قال هامساً..

- خمسة عشر عاماً وأنت تقولين هذا الكلام..

وتركت الباب موارباً.. تسللت..

***

ها هى أنا مرة أخرى.. أطأ موطن الألـــم فيــك، أوقــظ فوائت أيامك.. أحرك موات مشاعرك، كل ليلـــة أفعلـــها، أعيد إلى ذاكرتك المتوقفة صور المـــاضى كاملـــة بكـــل الحزن فيها، بكل معانى الفراق الشـــرس، أجـــئ بخيـــال ولدك، طيفاً متحدثاً يدك رأسك المجنون بحذائه..

فلترين أينا أقدر على الاستمرار، على هزيمة الآخر..

ولأثبت لهذا الزوج الساخر إننى قادرة عليك.. ســـأفعلها..

لكن الزوج يعلم بأن العجوز لم تعد تشعر بـــالألم.. منـــذ خلعوا من بين أنقاض جزء البيت الساقط جثث أبنائها..

منذ رحيل ولدها إلى الجندية ولم يعد..

منذ ذلك الوقت البعيد طقطق شعرها.. وأطالت فى الجثـث التحديق.. أصابها البله.. امرأته لا تفهم هذا ولا تريـــد أن تفهم..

كيف لا يشعر الإنسان بالألم.؟ لابد أن يتألم، مثلما نتـــألم نحن.. وأن لم تشعر به، فما فائدة هذا التعب.؟

وحين صبغت العجوز شعرها بالحناء، وبـــدأت تضفــره جدائل، أدرك الزوج، أن الولـــد الغـــائب، قـــد حـــاصر الذاكرة.. صار متواجداً.. قريبـــاً. علـــى مبعـــدة بضـــع خطوات قصار..

***

دب حذاء الجندى على البسطة بخطو بطـــئ. جنـــائزى، منتظم. دق قلب

العجوز، رمقت الباب، وانفرج ثغرهـــا المتغضـــن عـــن ابتسامة ممتنة.. وبرتابة معتادة، عملت يديها فـــى غـــزل الصوف..

توقف الدبيب..

انتظرت أن يدق الباب.. قليلاً ويفتح، يدخل.. عادتـــه ان يفتح ويدخل.. يدع حقيبته ويجرى.. يدخل فى صدرهـــا، لعله جاء بمخلة متاعه العسكرى، أو يكون تركها -ربمـا- بوحدته الجديدة.

الآن، يمكنها أن تقيس على جسمه البلوفر.. لم يعـــد بــه الكثير لتنتهى منه، تعرف هى مقاس جسمه، اتساع صـدره العريض.. ربما سمن قليلاً، أو نحف قليلاً، لا يهم أن كان واسعاً بعض الشئ..

عاود الحذاء دبيبه البطئ.. اقترب من البـــاب.. توقــف.. تفاقم وجيب القلب.. ازدادت سرعة السنارتين..

هل سيناسب البلوفر جسمه،؟ الإنسان بعيداً عـــن أمــه لا يسمن.. هل يأكلون فى العسكرية جيداً..؟

الآن سيراه.. لكن، الغرزة المســـتطيلة أفضـــل، أم تلــك المتعرجة.؟

كان يحب الغرزة المستطيلة باســـتقامة.. تـــرى، أيريـــده برقبة.؟

هذا مالم تفكر به.. لكنه ارتدى ذلك كثيراً..

لابد أن ذوقه قد تغـــير بعـــد تجنيـــده. كمـــا أن الغـــرزة المتعرجة أفضل، بها من الحــــلاوة مـــا يناســـب وجهـــه النحيف.. سيكون أجمل بالغرزة المتعرجـــة.. المتقاطعـــة عند الكتف.. الكمان لا يزالان ناقصين..

صلصلت بالخارج سلسلة مفاتيح، بعيـــن حانيـــة نصـــف مغمضة تطلعت إلى الباب، توقفت ســـنارتا الغـــزل عـــن الحركة.

سيأتى ولم تنته بعد من البلوفر.. ســـيلقاها بعيـــن معلقـــا بسوادها المحبب إليها لمحة عتاب خفى.. ســـوف يشـــعر بتأثير عتابه ذا منعكساً على ملامحها.. ســـيحاول كتمـــان عتابه، ليتألم به وحده..

تحركت السنارتان بسرعة..

تغزل فيه الليل كله، كتلك الليالى الفائتة المغزولـــة بكـــل العصب، كانت تفعل ذلك، تفك الصوف وتعيد صنعه.. ثـــم لا يروق لها ما صنعت فتفكه، وتبدأ فى نسجه من جديـــد. بغرزة جديدة..

هو الآن ينظر إليها. يراقبها من وراء الباب.. ينظرها مـــن الثقب.. ثم يمضى، ليعود وينظر.. بالتـــأكيد، ينتظـــر أن تنتهى من البلوفر، حتى لا يشعرها بنظرة عتابه. وبأنـــها مقصرة نحوه. وبأنها كسولة..

سقط على أرض البسطة شئ ثقيل.. تبسمت.. لقــد عــاد بمخلة متاعه..

ربما لم يرحل بعد إلى وحدته الأساسية..

[كانت المرأة بالخارج توسع من حركتــها.. تفــرج عــن ساقيها.. تضربهما الواحدة بــالأخرى بغــرض إصــدار صوت الوقوع.. ثم النهوض، الزحف، تدب بالحذاء علــى الأرض وكأن الجندى يهان].

فى الأيام الأولى من تجنيده، كان يجــئ بمخلــة متاعــه، يلقيها هكذا بالخارج، ثم يفتــح البــاب ويدفعــها بقدمــه ويدخل.. يقضى الليل، وفى الصباح يذهب بــها، كــانت تضع له فيها طعاماً ونقوداً..

فى آخر زيارة، قال أنه أنهى فترة تدريبه، وأنه راحل إلــى وحدته الأساسية، وربما إلى الميدان..

بعدها، بدأت المدينة تلبس الثوب الأسود.. الداكن المنقــط بمصابيح زرقاء كابية..

فى ذلك الأمس القريب، قرقعت السماء بصواعق عاتيــة، هدر لها الكون، ماج الناس. ابتلعتــهم المخــابئ ليبيتــوا هناك. ليصعدوا فى الصباح إلى بيوتهم..

فى صباح ما، هدرت الدنيا فجأة..
هرع إلى المخابئ ناس، وبقى ناس وراء البيوت..
شقت جدران البيت القديم، تساقط منه جانب..
انطوى فى أنقاضه عظام أطفالها، وقتئـــذ، كـــانت تعلـــم لأطفال المدرسة معنى الحرب، وأن هناك أعداءً بالشاطئ الشرقى، وتعلمهم معانى الحب ومبادئ الكتابة..
حين عادت ظهراً، طالعت بأعين محدقة بلا دموع، رجالاً يلبسون الحزن، ينقبون فى الأنقـــاض عـــن بقايـــا جثـــث وعظام..
اقتعدت الرصيف، تطلعت إلى بيتها وجانبه المتصــــدع.. اكتنفها الشـــارع وقطعـــة مـــن أرض يغطيـــها المشـــمع والبطاطين القادمة من حيث لا تعلم.. وحين خلعت المدينة ثوبها الأسود والمصابيح الزرقـــاء، جـــاء الرجـــال ذوو العربات الفارهة، أشاروا على الرجال الآخريـــن بـــترميم البيوت.. أعادوها إلى شقتها بلا أثاث..
[تباعد الدبيب على البسطة. كانت المرأة تتباعد عـــائدة، بنفس الخطوات المنتظمة المتلاشية رويداً، فقد قارب الليل على الانتهاء من نصفه الثانى].

زالت عن غضون الوجه ابتسامة.. تبــاعد الدبيــب فــي الأذن..

عندما توقف تماماً..

فكت بسرعة خيوط البلوفر. لفته كــوراً.. كــانت هنــاك غرزه أفضل، يقيناً سوف تعجبه، عندما يجئ فــي الليلــة التالية.

بدأت تعمل ببطء. تعيد ما عملــت يداهــا مــن جدائــل مضفورة، بشكل جديد..

مجلة القصة ١٩٩٢

تيقن صابر من أن عيون الجيران السطحيين تراقبه، مـــن خلال ثقب الباب ومن شيش النافذة الموصد، ومن فتحـــــة إفريز حلق الباب.. يعتقدون بأنه، بالفعل، مخبول.. يـــدور فى الغرفة كحيوان محبوس.. مزق قطعاً من قماش قديـــم. دسها فى كل العيون، مدركاً، رغم ذلك بأنهم لا يزالـــــون متواجدين، يحيطون غرفته.. يتسلقون الجدران. ينفســـون عن الغيظ؟؟

- يا ابن الأهبل...

- يا عبيط...

يمتد ذراعه إلى الجدار المواجه للباب.. كان خيط الشــمس يخترق فتحة الإفريز ويستقر هنا فوق الجدار.. الآن، لـــم يعد موجوداً.. أنزل شهادته.. عارية كانت. مشبوحة فـوق مسمار مائل وصدئ مدقوق فى بياض مقشور وكالح..

لا جدوى من التعليق، واثبات كيان محمول فوق صنـــدوق تلميع أحذية.. كانوا يرونها، حين يـــأتون لزيـــارة أمـــه.. عمال وحوذية وخدم، لا يقرأون.. حدق فــــى الشـــهادة.. بنظرة.. استنطق الحـــروف.. جوفـــاء.. محفـــورة فـــى الرأس.. ما جدوى الحروف.؟..

ألقاها فوق سريره الخشبى الصغير.. مائدته تنوء بحملها المألوف.. طبق فارغ وثلث رغيف ناشف، وكوب شاى تعفن بقعره التفل.. مظاريف معدة للسفر. قلم جاف بلا غطاء منهوك القلب.. القوى العاملة.. وزارة.. الزراعة.. الوزير.. سعادة.. النقل والمواصلات.. المحافظ.. البلدية.. الثقافة.. العلوم.. رئاسة الجمهورية.. رئيس الجمهورية خط يده.. تحد سافر.. يطالع هو بنفس التحدى.. تنتظر السفر، مثل عشرات الشكاوى المرسلة قبلا.. لا جدوى.. تتحداه أن يلصق فوقها الطوابع ويهبط بها الدرج. يودعها صناديق بريد موزعة بالمدينة.متفرقة فى الشوارع.. تتحدى أن يضعها بغمير الحنو وتقبيل الصندوق بتوسل وإذلال. قبور أولياء. الشفاعة. الإجابة.. يفكر أحياناً، بأن هذه الصناديق وضعت عمداً فى طريقه كى تأخذ رسائله وحده. تبتلعها وتحتفظ بها فى جوفها دون تصريف.. صناديق متخمة. مكتظة..

برأسه دماء تفور. ليواصل التحدى ويوارى المظاريف. لن يلصق الطوابع. والتفت إلى الشهادة، عصارة سنوات الانكباب فوق صفحات الكتب والتشبث بسطور المراجع، وخوف السقوط.. نقش أمنيات الزمن القادم بأحلام التقدم

تتسلل فوق الجدران الناشعة بالماء والملـــح، العـــرق ودم القلب، والرأس المفلوق تحت وطأة الليـــالى.. كـــل شـــئ مدون فوق أوراق الشكاوى.. سطور.. رفـــوف مخـــزن مهمل يحمل أشواق الصبـــا والـــبراءة.. يعلوهـــا، الآن، الغبار.. أشواق الأب المتوفى منذ عهد قريب.. لن يخنـــع ويلصق فوق المظاريف طوابع.. لن يستدين نقوداً من أمه بائعة الخضار.. لن يختلق زيارات لبيت الأخت ليحظـــى بوجبة غذاء..

انفثأ الحنق الكامن. خرج منه ذراع محموم.. مسح أشـــياء المائدة بيد غضبى.. تطايرت المظاريف وتنـــاثرت فـــوق الأرض..

دعك العنق الفائر. أقعى ينظر إلى الجدران، موقنـــا بـــأن الآعين تتسرب إليه.. نهض وحث خطوا متسللا، مسرورا بلحظة يباغتهم بها.. نظر لثقب الباب وشـــيش النـــافذة.. كانت قطع القماش قد سقطت.. أدرك بأنهم دفعوا القطـــع بشئ مبروم ليواصلوا النظر، فوضع فمه برفق فوق ثقـــب الباب وكون بصقة وقذفها.. تناهى إليه صوت غاضب..

- آى.. يا ابن الكلب.

ابتهج وفكر فى وضع مسمار.. لكن سيفقأ عين النـــاظر.. حرام.. يكفى وضع قطع مغموسة بالجاز..

- يا ماسح الأحذية. يا نتن..

وانفرط يدور حول النافذة.. ثم حــول المــائدة.. وبرفــق حذر، حمل الشهادة بإعجاب. وضعها فوق المائدة بحنـــو بالغ.. وابتعد قليلا، متأملا.. واقـــترب.. ورق مصقــول لامع، جميل..

لمح نفاية ذبابة فوق الصقر المجنح. بلل اصبعه ومسحه.. تأمل زركشة الحواف المذهبة.. ســور ســميك مضفــور بسلك ذهبى شائك.. يتعذر الخروج والدخول.. محبـــوس الاسم. عام التخرج.. التفوق.. كلية العلوم.. خاتم الدولـــة والصقر..

انحنى مبرزا مؤخرته إلى الوراء، مرتكزا بكفيـــه علـــى ركبتيه محدقا.. أبوه مكتوب بعد منه. درجة ثانية.. ينبغــى أن يكون قبله.. بائع الفواكه المتجول ينادى بصوت تكمــن فيه الثقة.. يناجى الزبائن بحب وأدب رائعين كمن ينـــاجى ولده الطالب المجتهد.. قابعا كان بالقلب. يتجلى دوما فـوق الوجه. فى صوت طالب علم وقور.. بعد حيـــن ســوف يخرج من القلب وليكتفى بالقعود على المقهى ومعاشـــرة

أرباب السنوات الكثيرة.. ليحمل الشاب الموظف أعباء البيت والأم. يخرج من جوال الأب المحمول فوق الظهر والملآن بالفواكه التى لم تبع. العائد ليلا يجرجر أقدامه تحت أنظار التطفل الملعونة..

وحين خرج من الجوال، خرج الأب من الدنيا..

باغته فرح طاغ، قصير العمر.. اعتدل وفرك فروة رأسه المشعث.. قفز.. تدركه العيون.. أكيد يضحكون منه الآن.. أطفالهم.. الشياطين معلقون بأعلى الباب، ينظرون.. ينتهكون حركات بدنه المتفجرة بصراخ غنائى.. تقوقعت بالجسد كل الحركات. ووقف مكدوداً.. أزاح المائدة وصعد فوقها وبصق بقوة إلى الخارج غير متيقن بأن هناك أحداً.. لكن جاءه الرد المغتاظ..

- يا ابن الأوساخ.. طيب.. سوف ترى..

هبط تغمره مشاعر بالتفوق والمسرة.. داس على المظاريف. ابتهاج مفاجئ.. كيف لم يفكر من قبل فى وطء هذه الرسائل التى تنتظر الطوابع؟ يجب أن يدوس. كل الخلق يدوس.. ثلثا الأهل حفاة الآن يتوجب عليهم الدوس.. حفيت قدماه بحثاً عن عمل يحفظ ماء الوجه.. دق أبواب السادة المنتعلين الأحذية.. شركات الأهالى

وهيئات الحكومة. بلا جدوى.. أطفـــال حديثـــو الـــولادة يسكنون الجوف.. يبكون. اتباع صندوق مسح الأحذيـــة.. قاعداً كان بين البشر بالميدان القريب مـــن تـــرام الرمـــل بجوار حانوت بائع الفشار.. يولى قصر القنصل الإيطـــالي ظهره..

بدأ فى تجميع أشياء المائدة بانحناء بدن شارد الذهن. يواجه مسرح "على كيفك" تريكو. صندوقه جديد بحافتـــه رف يحمل الفرش وقطع القطيفة.. جـــرس لامـــع قـــرب اليد.. وقاعدتان متباعدتان لوضع القدمين.. ولأن المـــألوف وضع مرآة ليشاهد الزبون نفسه لو أراد.. لكـــن صـــابر كسر المألوف ووضع شهادته تحت لوح بللورى ســـميك، فتعاقبت على الصندوق أحذية الاندهاش المفتعل الفـــاتر.. ترمى إليه نقوداً.. ضحكات.. أنظار الجـــيران.. تتكـــاثر أحذية البشر، مع الليل، يـــودع صندوقـــه حـــانوت بـــائع الفشار.. يغوص بين ركاب ترام الرمل المتأنقين. يتـــأنق.. تتلقفه جدران الغرفة.. يبحث فى الأرض عـــن رســـائل.. ربما تكون قد جاءته نهاراً. أزيحت إليه من تحت البـــاب تحمل له جواب تعيين.. لكن. يتوســـد صندوقـــه، يـــأخذ موقعه.. تدنو الأحذية، تتباعد. كانوا يرونـــه. يتطلعـــون

إليه. ويبتعدون.. يلمعون لدى الدكاكين.. البعـض يـأتي.
يلمع. ولا يقرأ. ينظر، ويدفع الثمن ويمضي.. ولابـد أن
كل الماسحين جهلاء بالقراءة.. هل يتعـامون ويكتفـون
بالنظر؟.. لابسو الأحذية غالية الثمن بغيضون، يسـتلذون
بالنظر الفظ.. سوف تصبح موظفاً حيـن يـأتيك جـواب
التعيين.. هذه الأحذية الغالية لموظفين عاديين؟.. لا هـي
لأصحاب البحر والسفن والسمك..
رجال الفنادق والبوتيكات والوجـوه المتكلسـة. وسـيقان
متكلسة ونظرات ظفر ممقوتة.. يقولون.. شالوم.. حيـن
يأتون.. وحين يذهبون.. اغتبط لحد الامتعـاض.. حمـل
لأخته أكياس الفاكهة.. منـح الأولاد نقـوداً، فـاغتبطوا
بشدة.. ومنح الأم نقوداً كمصروف يومي فاغتبط الحـزن
الدفين.. كان يدوس المظاريف.. ويحدق طويلاً في عقـب
الباب. ربما تزحف إليه رسائل.. لكن لم تزحـف إليـه.
والشهادة. والوجوه المتكلسة بكـثرة.. كـانوا يـتزايدون.
يلهون وينتظرون ويضحكون.. يستغرب. يضحكـون؟..
ذوو الأحذية القديمة لم يعودوا يمسحون.. أصحاب الأفخاذ
البيضاء والشورتات الحمراء والكاميرات المعلقـة فـوق
الصدور يتساءلون وهو ينظر بغيظ لأصحـاب الوجـوه

المتكلسة الناظرة بتهكم تبسمت الأفخاذ البيضاء.. انحنــوا له إعجابا وتبجيلاً..

الآتون عبر البحر والجو. حاملو الآثـار فـي الصـدور، سطوع الشمس فى الرؤوس.. التقطوا له التصاوير فأشـاح بوجهه الغاضب معزياً نفسه بأن الشهادة لن تظـهر فـي الصور إلا إذا اقتربوا جداً..

ضحكت البوتيكات والفتارين والدهاليز الرخامية.. سـألوه المكوث قليلاً جنب الدهاليز مدركين مدى اجتذابه للعيـون المدهوشة.. صورته الوجـوه المتكلسـة وهـو يـوارى صندوقه محل بائع الفشار. وصورته الأفخـاذ البيضـاء وخلفه مكتب التلغراف. ولم يصوره أحد وهـو يـوارى رسائله صناديق البريد: غدا أو بعـد غـد تكتـب عنـه الجرائد. ويصوره التليفزيون..

رفض بانفعال أن يكون موضعاً للاندهاش..

والزمن يدور من حوله ولا رسالة واحدة.. الأحذية تـدور والخلق بلا جدوى.. لم يرفع قدميـه عـن المظـاريف.. المائدة هناك والشهادة.. الضوء يخبو رويداً عن الغرفـة.. رأسه يفرز.. كان يغادر ترام الرمل. يدفـع نفسـه نحـو

حانوت بائع الفشار المبتهج.. دعاه بائع الجرائد القريـــب أن يقترب.. قال الرجل..
- أرأيت؟. صورتك فى الجرنال!.
ونشر الرجل الجريدة قدام الوجه الممتعـض.. صورتـه وهو منكب على الصندوق، منهمك فى مسح حذاء لرجـل متكلس الوجه وممقوت..
قال بائع الفشار المبتهج..
- سوف يأتى مصور آخر الآن.. دعنى أتصور معـك.. والنبى..
يذكر ذلك الوجـه المتكلـس المشـمئز المحتقـر.. شالوم..
كان يعد الصندوق عندما وقف بـائع الجرائـد جـواره. والظلمة تزحف على الغرفة.. وبائع الجرائد يبتسم غـامزاً له أن ينتبه، فأحد المصورين يقترب وهو يرفع الكـاميرا.. وكان الصندوق يرتفع فى حركة مباغتة أذهلت الوقـوف.. شاهدوا الصندوق يقذف بسرعة ويرتطم بوجه المصـور المتكلس. وازدادوا ذهولاً حين شاهدوا المصـور يعـدو هارباً تاركاً الكاميرا مكسـورة إلـى جـوار الصنـدوق المكسور..
انحنى على شهادته. رفعها عن المائدة. مسحها ووضعـها فوق السرير. وأقعى.ناظراً إلى عقـب البـاب، منتظـراً رسالة.

ميدان سعد زغلول يموج بحشود البشر، فـوق الأرصفـة والبوتيكات، ومداخل البيوت، ومتاجر الثيـاب.. نـاس.. وجوههم جيرية... ألمحهم، يعتلـون بصـرى وآخـرون مألوفو الملامح.. كانوا بمستوى عينى.

أبدان تموج. مخلوعة الرقاب. تخطـف أعينـهم ألـوان الأردية والأحذية وإعلانات دور العـرض السـينمائى.. وكأن بيوت المدينة الرحبة قد ضاقت بسكانها وطردتـهم، فلفظتهم كتلا مكبوتة متعبة الرؤوس. إلى الشوارع. لـترتع هنا،ليرفعوا الأعين الحسيرة فوق زجاج الفتارين الزلـق. حيث تزلق أرقام المعروضات النظـر، يرتعـد، فتسـقط العيون فوق دهاليز النيون، مكسـورة الخـاطر، مـألوفو الملامح. يواصلون رحلة التفرج البطيئ، وترويح النفـس بالتسكع تحت أضواء النيون الباهر..

وكنا نسير.. صديقى.. وأنا، أتصفح كتاباً قديماً، فى طبعـة جديدة لأحد نقاد عصرنا.. المبهر..

مال صديقى مقترباً من أذنى، همس مداعباً..

- لا فائدة.. أنظر أمامك حتى لا تتعثر أو يصدمك أحد.

وكان يحمل كتبا، ومد يده وأغلق كتابى..

وضعت الكتاب تحت ابطى.. ثقافتنـــا بيـــن نعـــم، ولا.. حكايات الزمن الفائت عن الفن والأدب.. أمنيات التغـــير.. رسائل كتبت منذ العهد المبـــهر. حتـــى بدايـــات العـــهد الداعر.. رجال ماتوا فكرياً، وجسدياً، وآخرون اســـتنزفت دماءهم العقائد والقيم.. و "أذيـــال" صـــاروا ســـلعاً تبـــاع وتشترى فى أسواق النخاسة.. كانت الوجوه الجيرية قـــد بدأت تغزو عينى.. بتكاثر..

- كتابى رفض لأننى لست تابعاً لشلة فلان..

نبهنى صوته لازدياد الوجوه الوافدة، تـــروح. وتجـــئ..، تدور، وتدور من حولى وكنا نسير.. وأبحث بنظر ثـــاقب عن مألوفى الملامح. الذين بمستوى عينى.

كانوا يبدون لبرهة، ليتواروا سريعاً بين الحشود.. الذيـــن كانوا يرتقون عينى غصباً كغمامة تثاقلت فوق محجـــرى المفنجلين ليطبعوهما بالدهشة والغرابة. حاولت أزاحتـــهم بعيداً عن موقع مخى، بالنظر فى الكتاب.. لكنـــهم حـــالوا بين رغبتى الملحة، بتسكعهم بالغ الصلـــف والثقـــة وهـــم يجوسون خلال البشر،والوجوه الجيرية مـــألوفو الوجـــوه آثروا السير على استحياء إلى جوار جدران البيوت.

أيقنتُ بأن الوجوه الجيرية تعمدوا ارتقاء تلافيفى.. امتلأت بالغيظ.. وكانوا ينبعجون، والعيون تحدق، تبعث شــرراً.. وأنوف تعانقت ممتدة، تنفتح، تشتم أبداننا، وأفــواه تشــهر أنيابا مسنونة..

وفتاة مألوفة الوجه تخترق تلافيهم المــزرى، وتتــوارى، يغوصون فى الشارع، ورأسى.. كأنهم أزليون هنا، ولــدوا هنا.. كانوا معلقيين فوق واجـــهات الدكــاكين.. صــور مستفزة، فوق الفتارين والبلور الأملس.. والشوارع..

سحبنى صديقى، وجسدى المثقل بغضب واهن يتبــع يــده وهو يتجه نحو الرصيف الاخر، عــابرا بحــر الشــارع اللامع المتخم بسيل العربــات المتماوجــة.. كــان وجــه صديقى قاتم السمرة، ولقربه منى، تفحصت وجهه الباســم المستغرب.. ونحن نتفادى السيارات بصعوبـــة، وأمنيــة بالقلب تحث القدم على المضى، ركضـــا، نحــو أعمــاق المدينة. حيث نتوه هناك عن الوجوه الجيرية.. أذكر أننــى شاهدت بعضهم هناك، فى الســنترال، ومحطــة الســكة الحديد، وبعض الصحف..

هوى كتابى من تحت ابطى.. تملصت من ذراع صديقــى وأحنيت جذعى. التقطته قبيل هرسه تحت العجلات.. حين

اعتدلت. شعرت بألم يباغت ظهرى. وضعت كتابى تحــت أبطى وتابعنا السير على الرصيف الآخر..
كانوا يتغلغلون بالرأس ويكــبرون.. ونجومــهم الداوديــة موزعة بالأركان..
احتبست بالصدر صرخة.. أود لو أطلقها وســط حشــود البشر بالميدان.. الأعماق والسطوح لنا.. السفح والقمة..
لفظة آهة وجع.. اندهش صديقى.. سألنى..
- مالك؟!
اختلج بدنى بغضب كامن، وقلت..
- لا شئ..
هرست غضبى تحت أضراسي.. تيبــس لعــابى، حتــى انعطفنا إلى شارع النبى دانيال..
تصاعدت آهتى ملوثة قولى،
- أين إذن تكون مدينتى..؟!
انتبه صديقى لتأوهاتى وقال..
- وبعدها معاك.؟ الا تعرف أين أنت الآن؟
كان ينظر لوجــهى المختلــج بطــرف عيــن.. وكــانوا يتوافدون.. تطلعت لوجه صديقى لعلــه يراهــم قــائمين بعينى.. ولعل وجهه المألوف يزيلهم من فوق تلافيفــى.. فقد تفاقموا بحيث يصعب الانعتاق من حصارهم..

قلت فى نفسى، لعل صديقى يتجنب النظـــر إليـــهم آثـــرا السلامة الوقتية..

- تعرف شنطة المدرسة وصل سعرها كم.؟

ودفعنى برفق لأصعد الرصيف..

- حاسب يا أخى..

مواصلا حديثه عن الأسعار، وقد توقف مكـــان وقوفـــى تحت الرصيف تاكسى مباغتا، أرجفنى، ونبـــه شـــعورى بحتمية أخذ الحذر أثناء السير هنا.

- خمس مرايل، وخمسة أزواج أحذية..و..

استجمعت فتات غضبى المـــوزع علـــى كـــل أعضـــاء جسدى..

- ونصف الشهر المنحة.. لم..

توقف صديقى حين توقفت أستعيد أنفاســـى.. ينبغـــى أن يخرجوا من رأسى.. نزل من التاكســـى أربعـــة رجـــال، وجوههم جيرية وامرأتان عاريتان حتى المنتصف.. قلـــت في بالى، لا فائدة: وكان أحدهم يمنح السائق نقودا.. ابتسم الرجل بسرور كبير.. أخذ- مؤكد- أجرا أكثر مما كـــان يتوقع..

تضخم بقلبى الحنق.. كانوا على بعد متر واحـــد منـــى.. يضحكون ويتحدثون ويطالعون واجهات المحال والبيـــوت العتيقة بالشارع والمعبد المجاور لوقوفنا.. قلت لنفســـى.. انهم يعرفون دروب ومسالك البلد ولذلك يجوبون أركانـــها

بدون دليل أو مرشد.. تباعد صديقى. انتظرنى أمام أحـــد متاجر الشنط المدرسية فى حين تقدم جنــــدى الحراســـة، اقترب بزيه الأبيض.. ترك باب المعبد المغلق ودنا مــــن دائرتهم..

تجلت ابتسامة الرضا الودود، ريفية المنبع، فـــوق وجهـــه المشرب بحمرة الخجل، توقف بصمت المنتظر سؤاله..

كانوا فى زهو عن تواجده المفاجئ.. نظر أحدهم إليه، ثـــم تابع الحديث والتطلع إلى قبة المعبد القديم..

تنحنح الجندى، لتتجلى لهم قدرته على التواجد..

كان كتابى ينزلق رويدا من بين إبطـــى وذراعـــى التـــى تفتحت لاستقبال الغضب الموزع بأركانى..

ويد أحد الرجال تمتد ببعض النقود والفكة، وتوضع فـــــى كف ذى الزى الكالح، ينسحب ببطء.. وكان الكتـــاب قـــد استقر فوق الأرض.

وكان الحنق الشرس يتكون بقدم تثاقلت فوق الرصيــــف، لتركل الكتاب على كامل اتساعها، وبقوة دفعت بـــه إلـــى منتصف الشارع، حيث العربات والمارة..

فهـــرس

رقم الإيداع ١٥٤٤١/٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N 977-5896-17-7

صدر من مطبوعات الكلمة المعاصرة

١) الأبجدية والمدارات الأخر	شعر	أحمد عبد الحفيظ
٢) خلف جدار الصمت	رواية	محمود صادق
٣) الديار التى لأمية	شعر	على عبد الدايم
٤) بوابات اللهب	رواية	على الفقى
٥) زمن بعث المراثى	قصص	محمد عبد الوارث
٦) يظنون	شعر	محمد نشأت الشريف
٧) مصر فى القاموس المحيط	دراسة	أحمد فضل شبلول
٨)رقصات مرحة لبغال البلدية	قصص	محمد حافظ رجب
٩) الزحف على حد المستحيل	شعر	يس الفيل
١٠) معجم أدباء الإسكندرية	إعداد	عبد الله هاشم
١١) الملح السايل	شعر عامية	جابر سلطان
١٢) من حديقتى	شعر	ادوار حنا سعد
١٣) محاورات الكتابة	دراسات	صبرى عبد الله قنديل
١٤) قهوة المعلم لول	مسرحية	أحمد خضر
١٥) حزنى أنا أولى به	شعر	جابر بسيونى
١٦) متاهات السرد	دراسات	شوقى بدر يوسف
١٧) رؤى نقدية فى أدب الأطفال	دراسات	جمال عساكر

الصديقان للنشر والإعلان

٧ش زين العابدين- محرم بك- الإسكندرية

ت: ٠١٢٣٦٨١٣٤١